

الفصل التاسع والعشرون

العرب في أسبانيا (تتمة)

٤٢٨ — ٨٧١، ١٠٣٧ — ١٤٦٦ م

ملوك الطوائف — انقساماتهم ومنازعاتهم — توسع سلطان النصارى
الملثمون أو المرابطون — يوسف بن تاشفين — موقعة زلاقة — وفاة
يوسف بن تاشفين — ولاية ابنه على — وفاته — تدهور سلطان
دولة الملثمين — الموحدون — عبد المؤمن — أبو يعقوب يوسف —
أبو يوسف يعقوب (النصور) — موقعة الأرك — وفاة يعقوب —
ولاية محمد الناصر — موقعة العقاب — انهيار دولة الموحدين —
ظهور بني الأحمر — مملكة غرناطة

أدى توتر الأحوال السياسية في العاصمة إلى أن ينتهز الحكام والأمراء هذه
الساخنة ويعلنوا استقلالهم ، ف وقعت ملقا والجزيرة الخضراء والمناطق المجاورة في
أيدي بني حمود الذين لقبوا أنفسهم بأمير المؤمنين ، وطفقوا يحكمون هذه البلاد
حتى اغتصبها منهم ملك غرناطة سنة ١٠٥٧ م ، ثم آلت فيما بعد إلى زعيم البربر
« الزاوي » ، وظل الحكم وراثياً في أسرته حتى عام ١٠٩٠ م ، كما استولى على
على أشبيلية والمناطق الغربية بنو عباد ، ويعتبر مؤسس هذه الأسرة قاضي قضاة
أشبيلية أبو القاسم محمد الملقب « بابن عباد » ، وكان آخرها المعتمد الذي أقصاه
يوسف بن تاشفين إلى أفريقيا ؛ وكانت طليطلة في قبضة بني ذنون الذين ازدهرت
المدينة في عهدهم ، وكان آخر تلك الأسرة « القادر » الذي سلم المدينة إلى ألفونسو
السادس سنة ١٠٨٥ م . وكان بنو هود الذين ينتسبون إلى أحد قواد عبد الرحمن
الثالث قد استقلوا بسر قسطة حتى سنة ١١١٨ م عندما استولى عليها المسيحيون
بقيادة رامير ؛ كذلك استقل عدة أمراء آخرون ببطلوس وبلنسية ومرسية

بنو هود
١٠٨٥ م

والمرية ؛ واستقل مجاهد بن عبد الله العاصري^(١) الملقب بأبي الجيوش بدانية مجاهد العاصري وجزائر البليار ، وكان العاصري جنديا شجاعاً وبحاراً خبيراً ، كما كان لديه أسطول كبير على أنهم استمداد لغزو سواحل فرنسا وإيطاليا ، وطالما هو كان على قيد الحياة لم تتجرأ السفن المسيحية على الإبحار في بحر الشام ، وكان هؤلاء الولاة يسمون « ملوك الطوائف » ، وكانوا جميعهم يشجعون العلم ويكرمون العلماء ، ويتنافسون في تشجيع الأدب والفنون ، ويقول مؤرخ عربي : « لما انفرط عقد تلك الدولة وتقسمت إلى ملوك صغار لم يخسر العلم والأدب بانقراض بني أمية ، إنما كسب بهذا الانقسام ربما كبيرا » .

لأن هؤلاء الملوك وحدوا صفوفهم ، أو لو كانت لديهم غاية واحدة لاستطاعوا تكوين جبهة قوية لصد غارات مسيحي أسبانيا التي أخذت تشتد وطأتها في ذلك الحين ، غير أن انقسامهم وحسبهم مهد الطريق لانقراضهم . وقد بلغ بالبعض ضعف النفس وخور العزيمة أن اتحد مع المسيحيين ضد منافسيه المسلمين .

وفي سنة ١٠٥٥ انقض ملك قشتالة وليون فرديناند الأول على المسلمين المتنازعين بجميع قواته ، وأقصاهم عن كثير من المواضع المهمة . وقد أنقذ المعتضد ملك أشبيلية ولايته بدفع جزية إلى أمير ليون ، وتوفي سنة ١٠٦٩ م تاركا الملك لابنه المعتمد الذي استولى في سنة ١٠٧٥ على قرطبة ، ولم يلبث أن أخضع طليطلة والمنطقة الواقعة من وادي الحجارة إلى وادي أنة . ولما توفي فرديناند الأول سنة ١٠٦٥ خلفه ابنه الفونسو السادس في عرش قشتالة ، وكان طموح النفس لا يهاب شيئاً فأقصى إخوانه عن مملكته ، وأعلن نفسه الحاكم الأعلى لليون وقشتالة وجليقية ونافاراً ولقب بالإمبراطور ، ولم يرض بالجزية التي كان يدفعها له مواله العرب عن يد وهم صاغرون ، بل وطد العزم على إخضاع شبه الجزيرة برمتها وجعلها تحت سيادته المباشرة ، وكان جل اعتماده على جيشه العظيم الذي كان

(١) كان العاصري مولى الحاجب النصور .

ينضوى تحت لوائه محاربون أشداء من سائر أنحاء أوربا ، فأعلن استعداداه إلى منازلة الأعداء « بشياطين وملائكة السماء » . وفي سنة ١٠٨٥ م سلم إليه القادر آخر ملوك ذى النون مدينة « طليطلة » المشهورة ، ففدا كبرياؤه بذلك التسليم لا يعرف حداً . واستشمرت غرناطة وبطليوس وأشبيلية ، والمدن القليلة الأخرى التى كانت فى أيدي المسلمين المصير الذى خبأته لها الأقدار ، وأخذت تتلفت ذات اليمين وذات اليسار تطلب العون على هذا الخطر الدام ، ومع ذلك كانت الخلافات الداخلية والمنازعات المحلية تجعل من المستحيل توحيد الصفوف ضد العدو المشترك ، فحولوا أنظارهم إلى الخارج .

إقامة دولة
المثمين

و بينما كانت الإمبراطورية الإسلامية فى أسبانيا تتردى فى هاوية الانحلال والتفكك ، قامت دولة جديدة فى أفريقيا الغربية باسم المرابطين ؛ وقصة نشأتها أن عدة قبائل من الصحراء الكبرى والملقبين بالمثلثين كانوا قد اعتنقوا الإسلام حديثاً ، فحرضهم الزعماء الدينيون الملقبون بالمرابطين على الجهاد فى سبيل الله ، فانتصروا لهم وأسسوا مملكتهم الجديدة التى امتدت رقعتها من سنغامبيا إلى الجزائر ، وسمى ملوكهم بالمرابطين أو المثلثين .

يوسف بن تاشفين
أمير المسلمين

ولما استولى على تلك البلاد يوسف بن تاشفين الذى أنعم عليه الخليفة بلقب أمير المسلمين ، وجه إليه ملوك الأندلس أبصارهم واستنجدوا به فأجابهم إلى طلبهم ، وعبر البحر إلى أسبانيا فى تشرين الأول سنة ١٠٨٦ م ، فانضوى تحت لوائه بالقرب من أشبيلية قوات المعتمد وجنود زعماء الأندلس الآخرين ، وزحفوا على بطليوس ، وأتى الفونسو^(١) فنزل موضعاً يقال له الزلاقة على بعد أربعة فراسخ من جنوب بطليوس ، وكان جيش العرب لا يزيد على العشرين ألف مقاتل ، بينما كان عدد جيش الفرنج بقيادة الفونسو زهاء الستين ألفاً ، فدارت معركة دموية هائلة بينهم يوم الجمعة ٢٣ تشرين الأول ، وأتحن المسلمون فيهم ووضعوا السيف

في رقابهم ، فلم يفلت منهم أحد غير ألفونسو في ثلثمائة فارس ، ومنذ تلك الموقعة جنت مملكة ليون المسيحية إلى السلم ردحاً من الزمن . ولم يلبث يوسف بن تشفين أن رجع إلى أفريقية ، ولكنه عاد في السنة التالية إلى الأندلس وأقصى ملوكها واستولى على إماراتهم وضمها إلى مملكة المرابطين ؛ وبذلك أصبحت أندلوسيا إلى حدود نهر تاجة في قبضة سلطان صاحب المغرب . وقد أخذ الفقهاء الذين أعانوا المرابطين على الاستيلاء على الملك يتمتعون وقتئذ بنفوذ واسع ؛ ويقول دوزي : « إن المرء ليجد نفسه في تلك الأثناء أمام سلطة دينية قوية على رأسها فقهاء المسلمين في عهد حكم الملثمين ؛ وقد أدى بهم ضيق أفق التفكير إلى تحريم كتاب الغزالي المسمى بإحياء العلوم » .

وبينما كان يوسف على قيد الحياة كان المسيحيون يخشون سطوته ، ولكنه توفي سنة ١١٠٦ م وخلفه ابنه على الملقب بأبي الحسن ، وقد اقتنى آثار أبيه وإن كان قد عجز عن اللحاق به في عدة أمور ، ولكنه مع ذلك هزم القبايل المسيحية في عدة مواقع ، واستولى منهم على تلافيرا ومدريد ووادي الحجارة وعدة حصون ومدن مهمة أخرى ، بينما استولى قائده « سير بن أبي بكر » على مدن شنتريم وبطليوس والبرتقال ولشبونة ، غير أن المسلمين فقدوا في الوقت نفسه سرقطة وقلعة أيوب وبعض المدن المهمة الأخرى فيما وراء نهر تاجة ، تلك المدن التي استولى عليها جيوش المسيحيين المؤلفة من الأراغونيين والكتالونيين والفرنج فيما وراء جبال البرنيه ؛ وبينما كان المرابطون منهمكين على هذا النحو في بلاد الأندلس تطورت الأحوال في أفريقية وأصيب ملكهم بكارثة عظيمة .

الموحدون سنة
١١٢٠ م

وفي سنة ٥١٤ هـ ظهر رجل يدعى محمد الملقب بابن تومرت من أهالي السوس من بلاد الغرب بين سكان البربر القاطنين سلسلة الجبال الممتدة في المغرب الأقصى ، وينسب محمد المذكور إلى أسرة عربية ، وكان قد رحل في شبابه إلى بلاد الشرق في طلب العلم ، فقرأ الفلسفة والشرع على عدة علماء كالغزالي

محمد بن تومرت
المهاضي

وأبى بكر الطرطوشى وغيرهم ، وعند عودته إلى بلده سخط على انحلال الأخلاق المتفشية فى جميع الطبقات ، وإغراق العامة فى تقديس الأضرحة ، ومن هذا بدأ يعظ أهل جبال الأطلس المتوحشين ويحضهم على التمسك بأهداب الفضيلة كما أعلن بأنه هو المهدي المنتظر ، والتف حوله عدد عظيم من الأتباع ؛ وانتخب ابن تومرت نائباً عنه شاباً اسمه « عبد المؤمن » ابن أحد التجار الأغنياء ، وسمى أتباعه وتلاميذه بالموحدين ، وأخذت تقوى شوكتهم تدريجياً فلم ينقض طويل وقت حتى أسسوا مملكة فسيحة الأرجاء على حساب دولة المرابطين ، وطالما كان على ابن تشفين على قيد الحياة ، كان سلطانهم مقتصرأ على مراكرهم الأصلية ، ولكنه لما توفى سنة ١١٤٣ م وخلفه ابنه لم يستطع الحاكم الجديد صد الموحدین الذين فتكوا به سنة ١١٤٥ م ، وما هى إلا برهة حتى انتقلت مراکش إلى عبد المؤمن ؛ وقد اتهم مسيحيو أسبانيا فرصة الكفاح بين المرابطين والموحدين وانقضوا على الولايات الإسلامية فى أسبانيا يشخون فى أهلها وينكرون بالمسلمين شر تنكيل ، ونادى الفونسو السابع بنفسه إمبراطوراً ، وأعمل السيف والنار فى قرطبة وأشبيلية وكرمونه ، ونهب وأحرق مدينة شريش واكتسح البلاد حتى وادى عاش ، ولم تكد تنقضى بعد ذلك خمس سنوات حتى أعمل أيدى التخريب فى مناطق جيان وباجه وأبده وأندوجار ، فاستنجد مسلمو الأندلس ثانية بإخوانهم فى أفريقيا . وفى سنة ٥٤١ هـ أرسل عبد المؤمن جيشاً وأسطولاً لمساعدتهم ^(١) ، فهزموا المسيحيين وأخضعوا الملوك المرابطين الذين كانوا قد استقلوا بعدة ولايات ؛ وكادوا أن يخضعوا بلاد الأندلس برمتها إلى سلطانه ، وبعد أربع سنوات قسم الإمبراطورية إلى ولايات ، وعين أولاده حكماً عليها ^(٢) . وفى سنة ٥٥٤ هـ استولى من الفريج على المهديّة وتلقب بلقب أمير المؤمنين ، وباستيلائه على هذه

(١) ابن الأثير .

(٢) مثال ذلك أن أباً محمد عبدالله الذى خلفه كان متولياً مقاليد الملك فى بجاية وملحقها وأبا الحسن على فى فاس ، وأبا سعيد فى سبتة والجزيرة الخضراء .

المدينة المهمة أصبح سيد أفريقية الشمالية دون منازع من صحارى برقة إلى المحيط الأتلسي غريباً .

وفي عام ١١٦٣ م توفي عبد المؤمن بعد أن بقى في الحكم ٣٣ سنة ، وكان وفاة عبد المؤمن أبيض البشرة أزرق العينين حكماً عادلاً شجاعاً نشيطاً محباً للعلم ، فازدهرت العلوم في عهده في سائر أنحاء الإمبراطورية وبخاصة في أسبانيا ، وقد أسس عدة كليات عامة ومدارس في مراکش . وبعد وفاته اعتلى ابنه « محمد » عرش الخلافة ، ولكن الأمراء ورجال الدولة عزلوه لضعفه وكسله ، وبايعوا أخاه أبا يعقوب يوسف ، وكان شهماً كريماً فاستبشر الشعب بولايته خيراً وأملوا على يديه نجاحاً وسعادة ، وزار أسبانيا عدة مرات واحتل عدة مدن من بينها تراكونة وشنترين ؛ وتوفي في سنة ١١٨٤ م خلفه ابنه يعقوب المشهور الذي بلغت إمبراطورية الموحدين في عهده ذروة مجدها ونخامتها ، ويوصف بأنه كان حاكماً عاقلاً مدبراً مثقفاً ، وقد دارت بينه وبين الفونسو التاسع ملك قشتالة معارك شديدة انتهت بعقد صلح بينهما لمدة خمس سنوات ، ولكن ما كادت تنتهي هذه المدة حتى غزا الجيش القشتالي — الذي تضخم بانضواء مسيحي ما وراء جبال البرنيه تحت لوائه — بلاد الأندلس « وأعملوا النهب والقتل وارتكبوا أروع ضروب السفك والتخريب » ، فلما علم يعقوب بالخبر عبر البحر ، وكان المسيحيون من جهتهم قد جمعوا جيشاً لجباً « من جميع أنحاء العالم المسيحي » لمقاتلة ملك الموحدين بموضع يعرف (بالأرك) على مقربة من بطليوس ، فهاجمهم يعقوب وألحق بهم خسائر فادحة ؛ ويقال إن عدد قتلى المسيحيين بلغ زهاء ١٤٦.٠٠٠ علاوة على الأسرى الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفاً ، فقرت فلول الجيوش المسيحية إلى كالاترافا حيث اعتصموا بها ، غير أن المسلمين استولوا عليها وأمعنوا في تخريبها ، قرر الفونسو إلى طليطلة حيث التف حوله جيش آخر سار به لمقاومة ملك الموحدين ، ولكنه منى في هذه المرة أيضاً بهزيمة شديدة ، واستولى المسلمون ثانية على كالاترافا

ووادى الحجارة ومدريد وسلمنقة وعدة مدن وحصون أخرى فى أسبانيا والبرتغال كانت قد سقطت فى أيدي المسيحيين من قبل . وفى تشرين الثانى سنة ١١٩٦ حاصر يعقوب مدينة طليطلة حصاراً شديداً حتى ضاق أهلها ذرعاً بتحمل مصائب الحصار ، « فخرجت أم الفونسو مع زوجاته وبناته وتوسلوا بيعقوب وهن يذرفن الدموع أن يبقى على المدينة ، فنالت توسلاتهن من قلبه ومست موضع الرحمة والإشفاق من نفسه ، فلم يجبهن إلى طلبهن فحسب ، بل أغدق عليهن العطايا والمهايا النفيسة أيضاً » . وبعد أن أنقذ مدريد التى كان يحاصرها أهل أراغونه الذين ولوا الأديار حالما اقترب منهم ، عاد إلى أشبيلية حيث قضى سنة يتفاوض مع سفراء الأسراء المسيحيين « الذين وفدوا عليه يطلبون الصلح »^(١) فأجابهم إلى ما يريدون ، وقام بمدة إصلاحات فى إدارة حكومة الأندلس . وفى نهاية سنة ١١٩٧ عاد إلى أفريقية حيث ظل باقياً فيها إلى أن وافته منيته سنة ١١٩٩م وكان يعقوب معاصراً لإصلاح الدين الذى كان قد أوفد إليه سفيره ابن أخى الأمير أسامة يستنجد به على الصليبيين ، وقال فيه أحد المؤرخين « إنه كان مكرماً للعلماء ويقربهم وهم أهل خدمته وخاصته ، وكان ديناً قياً للحدود فى الخاص والعام » ورتب ثغور الأندلس وشحنها بالرجال ، ورتب الحاميات فى سائر البلاد ، كما أصلح أحوال الدولة وشؤونها ، وأسس عدة مستشفيات (وبمارستانات) فى كل مدينة لمعالجة المرضى مجاناً ؛ وقد نبغ فى عهده الطبيب المشهور ابن زهر وابن باجة ، والفيلسوف العالم « ابن رشد » الذى كان متولياً منصب القضاء فى قرطبة . وكان « يعقوب » كالرشيد والمأمون وكخلفاء أسبانيا الأمويين يهتم اهتماماً عظيماً بالرى وتوفير أسباب الراحة والأمن للتجار والمسافرين ، كما جعل المدن بالأبنية الفخمة ، وهو الذى بنى المرصد المشهور فى أشبيلية ، وعرف بعد موقعة الأرك باسم « كيرالدة » .

محمد الناصر
لدين الله

ولما توفي يعقوب المنصور خلفه ابنه محمد الذي لقب بعبد الرحمن الناصر لدين الله ، وكان يختلف عن أبيه في المقدرة والأخلاق ، إذ كان محباً للهو عاطلاً من كل مقدرة ، وفي الواقع كان السبب الحقيقي لخراب دولة الموحدين وضياع دولة العرب في أسبانيا ، فكانت وفاة يعقوب المنصور إيذاناً للأمرء المسيحيين باستئناف الهجوم على بلاد الأندلس ؛ وما لبث ألفونسو التاسع ملك قشتالة (ابن ألقونش) أن غمر الأراضى الواقعة حول أشبيلية وقرطبة بمجنوده وأعمل فيها النار والسيوف ولأجل أن يثار الناصر لرعيته عبر البحر من سبتة بجيش لجب ، ولم يطل عليه الزمن في أشبيلية حتى أعدم يوسف بن قادس حاكم قلعة الرياح عقاباً له على تسليمها إلى ألفونسو ، ولم يثر تنفيذ الإعدام في هذا الحاكم الذي كان يحترمه جميع مسلمي الأندلس سخط الأهالي فحسب ، بل أدى إلى انتشار الخلل في صفوف جنودهم في ساحة الوغى ، وقد أثارت أخبار الناصر واستعداداته غضب الشعوب المسيحية . والآن بعد أن أقصى صلاح الدين جموع الصليبيين من آسيا ، وجه هؤلاء المغامرون وجوههم شطر أسبانيا ، فأعلن الأناست الثالث حرباً صليبية أخرى على المسلمين في الأندلس ، وأخذ رودركيو أسقف طليطلة الذي سافر إلى روما مستنجداً بالبابا يدعو يومياً إلى حرب مقدسة على المسلمين . فها هي إلا برهة حتى التحق بملوك قشتالة ، وأراغون ، والبرتغال ، وليون ، ونافارا جموع الصليبيين الذين زحفوا من فرنسا ، وإيطاليا ، وألمانيا على الموحدين ، وتقابل الجيشان في الموضع المعروف بالعقاب ، ويسميه الأسبانيون « لاناواس دى طولوسو » ، وفي أول معركة انهزم الأندلسيون وسلم البعض الآخر إلى العدو ؛ أما الجنود الإفريقية فقد حاربوا بشجاعة وبطولة عظيمتين ، ولكن العدو تغلب عليهم بكثرته وأفناهم عن آخرهم ، ولم يترك الناصر الميدان إلا بعد إلحاح شديد ، ففادته إلى مراکش حيث توفي سنة ١٢١٤ م من الحزن والكبد ؛ فتولى بعده ابنه يوسف ولقب بالمستنصر بالله ، ولم يكن قد ناهز بعد السادسة عشرة من عمره ،

موقعة العقاب
سنة ١٢١٢ م

يوسف
المستنصر بالله

وبطبيعة الحال استولى على زمام الحكم شيوخ دولة الموحدين ، وتوفي الخليفة الجديد سنة ١٢٢٣ فاعتلى بعده العرش سيدى أبو محمود عبد الواحد ، وفى عهده استقل الأمراء الموحدون والولاة فى أسبانيا ، وعلى أثر مقتله فى السنة التالية انتخب الموحدون ابن المنصور المسمى بأبى محمد ولقب بالعاذل . وفى سنة ١٢٢٧ م خرج عليه الثائرون وقتلوه فانتخب بعده أخوه إدريس حاكم أشبيلية ، وأعلن نفسه خليفة ولقب بالأمون ؛ ومع ذلك فقد فلتت من سلطته مرسية ، والقسم الأعظم من الأندلس الشرقية برئاسة ابن هود . وفى سنة ١٢٢٨ عاد الأمون إلى أفريقية مع عدد من الجنود المسيحيين الذين جهز بهم ملك قشتالة ، وكان سفره إيذانا بنشوب ثورة فى أشبيلية انتهت بخلع سلطة الموحدين والاعتراف بسلطان ابن هود الذى أصبح سيد القسم الأعظم من الأندلس ، وفنك الثوار بالأمراء الموحدين ، فقتلوا البعض وأقصوا البعض الآخر من البلاد ؛ غير أن ابن هود لم يكن العربى الأسبانى الوحيد الذى أعلن نفسه ملكا على أنقاض دولة الموحدين ، إذ أن الزيان (أبا جيل) نادى بنفسه ملكا على بلنسية ، بينما استولى محمد ابن يوسف المعروف بالأحمر على مدينة أرغونة وقلاعها ، ولم يبلغ أحد من هؤلاء الولاة الطموحين إلى العرش ما بلغه ابن الأحمر من النجاح ؛ فأسس مملكة أصبحت فى خلال المائتين والخمسين سنة التالية مركزاً عظيماً لمدينة العرب . ويصف لنا ابن خلدون الذى كان يعيش فى غرناطة فى بلاط أحد أخلاف ابن الأحمر سرعة نهوض هذا الحاكم الفاسم ، فيقول إن أسلافه كانوا يعيشون فى أسبانيا باسم بنى نصر ، وكانوا فى عهد الخلفاء الأمويين يتقلدون مناصب خطيرة فى الجند ، وكان محمد المعروف بالشيخ فى ذلك العهد رئيس الأسرة ، واكتسب بمثانة أخلاقه ومقدرته نفوذاً عظيماً على بنى جلدته ؛ فلما طفق سلطان الموحدين ينهار وضعفت شوكتهم وسلم الزعماء حصونهم إلى العدو لقب ابن الأحمر نفسه بالسلطان^(١) .

أبو عبد العادل

محمد بن الأحمر

(١) يقول ابن خلدون إن رؤساء الإقطاعيات كانوا يسمون بأصحاب المقل .

« وأصبحت بلاد الأندلس برمتها في تلك الأثناء فريسة للحروب الداخلية » .
واتهمز أهل قسطنطية فرصة انقسام الزعماء المسلمين ، وحرصوا الواحد على الآخر ،
ثم قتلوا الباقين . ولكن ابن الأحمر تحالف في مستهل حكمه مع ملك قسطنطية
ليضمن مساعدته على ابن هود الذي سلم للمسيحيين من جهته ثلاثين قلعة
ليساعدوه على ابن الأحمر ، وهكذا بدأ ذلك النزاع على هذا النحو المشين . وفي
سنة ١٢٣٦ م استولى القشتاليون على قرطبة ، وبعد ذلك بسنتين سقطت بلنسية
في أيديهم ، وفي سنة ١٢٣٩ احتلوا عسيرة ، وفي سنة ١٢٤٦ استولوا على مرسية
وأخيرا أخرجوا الزيان ونفوه إلى تونس ، وفي سنة ١٢٤٨ م حاصروا مدينة
أشبيلية حصاراً شديداً دام خمسة عشر شهراً حتى أذغنت المدينة إلى التسليم .
وبينما كان القشتاليون يفتكون بمنافسهم استولى ابن الأحمر على جريش
وجيان وغرناطة ومالقة والمرية ، وبمهارته وحسن تديره وحد ساطقته في تلك
الملكمة الصغيرة التي استطاعت أن تقاوم الأعاصير حولها إزاء ٢٠٠ سنة ، وأن
تصمد للقوات المسيحية الأسبانية والبرتغالية التي كانت تأتيها النجذات الصليبية
من حين لآخر من وراء البرنيه ، ولكن هذا النزاع كان منذ البدء غير متكافئ ،
وأصبح انهيار دولة بني الأحمر موكولاً للزمن ، كما أنها برغم ذلك كافت كفاحاً
مستميتاً حتى النهاية .

القشتاليون
يستولون على
قرطبة

الغالب باقته

لما استولى ابن الأحمر على غرناطة جعلها قاعدة ملكه ، واتق « بالغالب
بالله » ، وشيد لنفسه هنالك القلعة المشهورة المسماة قصر الحمراء الذي عمل أخلافه
على توسيعها وتجميلها .

وكانت سياسة ابن الأحمر مبنية على الاتصال الوثيق بملوك بني مرين في
المغرب الأقصى ، وتوطيداً لتلك الصداقة جعل اسمهم مقروناً باسمه في خطبة الجمعة
في كافة أنحاء بلاده . وفي سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) نشبت حرب بينه وبين
حليفه السابق ملك قشتالة المسيحي الذي غزا مملكة غرناطة ، ولكنه هزم

هزيمة شديدة . وقضى إلى خارج الحدود ، وتوفى ابن الأحمر في سنة ١٢٧٢ ؛
خلفه ابنه أبو عبد الله محمد ، وكان عالماً فقيهاً محباً للعلوم ؛ فلم يلبث حاكماً قشتالة
أن غزا تلك المملكة ثانية في سنة ١٢٧٤ بقيادة قائد يسميه العرب دون نوبو ، غير
أن محمداً بمساعدة ملك بني مرين هزمهم في معركة قتل فيها قائد الجيش القشتالي
نفسه . وبعد إحدى عشرة سنة نشبت حرب أخرى بين ملك قشتالة والمسلمين
وقد دامت هذه المرة حتى نهاية تلك المائة سنة ، ولكن محموداً انتصر في تلك
المعارك انتصاراً لا يقل روعة عن انتصاره الأول ، وتوفى في سنة ١٣٠٢ م بعد أن
حكم ٣٠ سنة حكماً عادلاً تمتعت فيها البلاد بالرغد والرفاهية . وخلفه ابنه ولقب
بنفس الاسم حكم البلاد بالحكمة والمهارة الفاتنتين حتى سنة ١٣٠٧ م عند ما خرج
عليه أخوه ناصر وعزله عن الحكم ، غير أن الملك الجديد كان سيئ الطامع ، إذ
ما كاد يعتلي العرش حتى غزا بلاده ملكاً قشتالة وأراغون ، ولم ينقذ البلاد
منهما إلا بإذعانه إلى دفع جزية سنوية لها . وفي سنة ١٣١٤ م اضطر إلى التنازل
عن العرش لإسماعيل أحد أحفاد إسماعيل أخى ابن الأحمر مؤسس تلك الأسرة .
وفي سنة ١٣١٦ م انتزع منه أمير قشتالة عدة مدن ، وإن كان قد ألحق بها بعد
ثلاث سنوات هزيمة خالدة في الفيرا . وفي سنة ١٣١٩ م بعث ملك قشتالة جيشاً
ضخماً بقيادة ابنه « بذرو » لإخضاع غرناطة هائياً ، وكان يصحب تلك الحملة
٢٥ أميراً من بينهم أمير انكلترا ، الذي التحق بالجيش القشتالي على رأس قوة
انكليزية كبيرة ، فسقط جميع الأمراء مجندين في حومة الوغى ، ومن ضمنهم
قائد الحملة « بذرو » .

ولما اغتيل إسماعيل سنة ١٣٢٥ م اعتلى العرش ابنه أبو عبد الله محمد فأظهر
عزماً وشدة في تصريف الأمور ، وفي سنة ١٣٣٣ م استخلص جبل طارق من
المسيحيين الذين كانوا قد استولوا عليه . وبما كان السلطان محمد عائداً من
إحدى الحصون محمته عليه جماعة من المتأمرين كانوا محتشئين وراء إحدى

غتيال إسماعيل

الصخور وفتكوا به ؛ خلفه أخوه أبو الحجاج يوسف وهو من أذكي وأشهر ملوك
 بني ناصر ، وكان عهده عهد أمن وورخاء ، وكان كأسلافه محباً للعلوم مشجعاً للعلم
 مكرماً للعلماء ، ولكن حكمه لم يطل لسوء طالع المسلمين في الأندلس ، إذ في سنة
 ١٣٥٤ طعنه مجنون بنجنجر طعنة نجلاء عند ما كان في مسجد القصر يؤدي فريضة
 الصلاة فتوفي على أثرها . وولى من بعده ابنه محمد الملقب « بالغنى بالله » وكان
 كأبيه مثقفاً عالماً مكرماً للعلماء ، وكان وزيره ابن الخطيب المشهور الملقب بلسان
 الدين الذى دون تاريخ أسرة بني ناصر . وبينما كان « الغنى بالله » متغيباً عن
 العاصمة اغتصب أخوه إسماعيل منه الملك ، فغادر الغنى أفريقيا واستوطن مدينة فاس .
 غير أن حكم إسماعيل لم تطل مدته ، إذ قتل في أثناء الثورة التى قام بها أبو سعيد
 الملقب أيضاً « بأبى عبد الله محمد » ، وقد فتك به ملك قشتالة بعد سنتين واستولى
 على ثروته . وبموت أبى سعيد عاد « الغنى بالله » إلى غرناطة واستقبله شعبه المتقلب
 الأهواء استقبالا حماسياً ؛ ففضى بقية حكمه دون أدنى مقاومة ، وساد السلام فى
 ربوع البلاد بفضل المهارة التى عالج بها الموقف مع ملوك قشتالة ، فتمتعت البلاد
 بظرف ساعدها على التقدم والثراء ، وانتعشت فى عهده الفنون والصناعة وجلب
 التجار إليها من أقاصى الشرق وموانئ البحر الأبيض المتوسط مختلف السلع
 والبضائع ، وخضبت البلاد بفضل مشاريع الرى الجديدة . وفى سنة ١٣٩١م توفى
 الغنى فحزن الشعب لوفاة . وخلفه ابنه أبو عبد الله يوسف الذى لم يكن حكمه سعيداً
 لحكم والده ، وإن كان ميالاً إلى احتذاء حذو أبيه فى الاحتفاظ بالملائق الودية
 مع ملوك قشتالة . غير أن رأى العام كان ميالاً فى ذلك الحين إلى محاربة
 المسيحيين فرضخ للأمر الواقع ، ولكنه لم ينل نجاحاً يذكر ، إذ لم يلبث حماس
 أهل غرناطة أن خد فاستطاع يوسف بعد حين أن يعقد معاهدة صلح مع الملك
 الشاب هنرى الثالث بشروط شريفة . وكان يوسف الثانى قبل وفاته قد أوصى
 بالملك لابنه الأكبر المسمى أيضاً يوسف والمشهور بحكمة الذكاء ومتانة الخلق ،

أبو الحجاج
 يوسف

محمد الغنى بالله

وفاة الغنى

ولكن الابن الأصغر واسمه محمود على أثر وفاة أبيه في سنة ١٣٩٦ استولى على مقاليد الحكم واستأثر بالملك دون أخيه الذى سجنه فى قلعة ساروبرينا .

وفى سنة ١٤٠٥ غزا جيش قشتالة منطقة غرناطة ، ولكن يوسف بدلا من أن يلتجئ إلى ملك قشتالة أخذ على عاتقه إنزال العقاب بالمعتدين ، فدارت معركة بينه وبينهم كان فيها الحرب سجالا . وبموت محمود السادس سنة ١٤٠٨ أخرج سيدى يوسف من السجن وأعلن ملكا على البلاد ، وأول عمل قام به هو الحصول من أمير قشتالة على تمديد عقد الهدنة ، وبعد سنتين نشب حرب غير حاسم بين الشيعين ، وأعقب ذلك هدنة أخرى انتهت بعقد صلح دام طيلة أيام حكم يوسف ، وكان قد نودى فى تلك الأثناء بالطفل ابن هنرى الثالث ملكا على قشتالة تحت وصية أمه التى كانت تقدر الملك العربى حق التقدير ، وكانت العلائق بين الاثنين على غاية الود والصفاء ، ولما كانا يتبادلان فى كل سنة أئمن الهدايا ، ويتراسلان بكتب ودية للغاية . ويقال إن فرسان قشتالة وأراغونة الذين كانوا يسخطون على حكومتهم راحوا يلتجئون إلى بلاط يوسف ، وكثير منهم كان يفد على غرناطة لحسم بعض المشاكل التى لها مساس بالشرف ، وكانوا غالبا ما يتقدمون إليه للبت فى مسائلهم ، فكان الملك العربى يتدخل أحيانا فى توقيف المبارزة ويسوى الخلاف بين الطرفين المتنازعين ، فأحبه الأجانب والوطنيون على حد سواء لعطفه وعدله وكرمه وفضله ، وساد فى عهده الوئام بين القشتاليين والعرب ، فأقدمت غرناطة على إصلاح ما فسد ، وأخذت تتمتع بنعمة السلام الذى لم تعرفه منذ أمد طويل .

توفى هذا الملك الطيب بعد حكم خمس عشرة سنة ، وحزن الشعب عليه حزنا عميقا ، وبموته انتهت أيام غرناطة السعيدة . خلفه ابنه محمد الملقب بالأيسر ، وكان متكبرا حاد الطبع فكرهه جميع أهل غرناطة ؛ ويقال إنه أبطل الأعياد العامة والبرجاس الذى كان يتعشقه أهل غرناطة ، وأصدر عدة أنظمة لا تلائم

وفاة الملك
يوسف الثالث

مزاج الشعب المرح ، فثاروا عليه وأقصوه عن العاصمة ، ولكنه لم يلبث أن استدعى إليها ثانية ؛ غير أن الشعب غضب عليه وطرده من العاصمة ، فاستولى على أعنة الحكم أحد الأشراف واسمه يوسف بمساعدة جون الثاني^(١) ملك قشتالة ، غير أنه لم يلبث أن توفي بعد بضعة أشهر ، فاسترد محمد السابع ملكه ثانية . وفي سنة ١٤٣٣ غزا ملك قشتالة غرناطة ، ومع أنه أصيب بهزيمة رائعة عند أسوار أرشيدونة إلا أن جيشه برغم ذلك أعمل معاول التخريب في قسم كبير من منطقة وادي عاش وسهول غرناطة . وفي سنة ١٤٤٤ أقصى نهائياً محمد عن الحكم من قبل ابن أخيه ابن الأحنف ، وسمى كذلك بمحمد الذي كسب قلوب الشعب بإنعاماته فاعترفوا به ملكاً عليهم ؛ غير أن قسماً كبيراً من الأشراف قصدوا إلى قشتالة وبايعوا « أسداً » الملقب بابن إسماعيل ابن عم ابن الأحنف الذي كان قد التجأ إلى جون الثاني ، فعاد الملك الجديد على رأس قوة من القشتاليين والأشعراء الموترين وغزا غرناطة . وفي خلال الخمس سنوات التالية نشب بين العرب حروب داخلية مروعة ، فانهمز ابن الأحنف نهائياً في سنة ١٤٥٤ م ، ونادى ابن إسماعيل بنفسه ملكاً على مملكة بني الأحمر ، وكان أول ما قام به هو إرسال السفراء والهدايا إلى هنري الرابع ملك قشتالة لتجديد معاهدة الصلح ؛ غير أن القشتاليين مع ذلك رفضوا إجابة طلبه وغزوا غرناطة ، فدامت الحرب سبع سنوات ، وأمعنوا في تخريب المدينة وأحرقوا بيوت المسلمين ، وخرّبوا المزارع وهدموا القصور الجميلة وجداول الرى . وفي هذا النزاع كانت كفة المسيحيين هي الراجحة ، إذ لو اكتسب العرب الموقعة لما كان ذلك النصر يغنيهم فتيلاً ، لأن مراكر القشتاليين الآلهة بالسكان كانت بعيدة عن متناولهم ، وأصبحت غرناطة الآن محصورة بين البحر وجبال الفيرا وسلسلة جبال البُشرات ، فاستولى جيش قشتالة عنوة على أرشيدونة وجبل طارق ، فأضعفت هذه المصائب غرناطة

(١) اعترف هذا العاصب بسلطان ملك قشتالة .

ابن إسماعيل ، ورأى أن الحروب لو استمرت على هذا المنوال لتقوضت دعائم ملكه ، فضحى بكل مرتخص وغال في سبيل الصلح ، واعترف بسلطان هنرى الرابع وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دينار ، وأبرمت هذه المعاهدة شخصياً في اجتماع حضره الملكان على مقربة من غرناطة ، ودام الصلح الذى عقد بين الاثنين حتى توفى ابن إسماعيل سنة ١٤٦٦ .